السّينما الجزائرية..

الفيلم اداة الثورة للوصول الى الجماهير

١

مثلت السينما الجزائرية منذ فجر الاستقلال وحتى اليوم علامة مضيئة وجادة على طريق تحقيق الاشرطة الثورية الملتزمة ، وعملت طوال سنوات عديدة على شد الملايين على امتداد الوطن العربي لما استطاعت تحقيقه سواء في مجال التحريض والتعبئة ضد المستعمر او في مجال اطلال المواطن العربي اينما كان على مسيرة الثورة منذ الانطلاقة وحتى مرحلة التغيير وانجاز التحولات في مختلف المجالات ..

ونظرا لاهمية مسيرة الثورة الجزائرية كتجربة فذة ورائدة تنشر الهدف فيما يلي الدراسة التي اعدها المركز الجزائري للاعلام والثقافة — بيروت — والذي يتناول اضافة الى التعريف بالسينما الجزائرية الانجازات التي حققتها الثورة في مجال تعميم الفيلم الملتزم والعمل على جعله اداة الثورة للوصول الى الجماهير وبعبارة اخرى .. التاميم .

كيف استطاعت الثورة الجزائريّة بناء كوادرها السينمائية جنبًا الى جنب كوادرها العسكرية والسياسيّة

يرتبط تاريخ السينما الجزائرية بتاريخ حرب التحرير التي اندلعت في الجزائر ، واستمرت طيلة ثماني سنوات ، كانت كافية لنسف العلاقات الاجتماعية السائدة ، واعادة صياغتها بما يبعد عنها مظاهر استغلال الانسان لاخيه الانسان . وقد رافق هذه الحرب الضروس انبعاث ثقافي وفكري لم يسبق له مثيل في تاريخ الجزائر المعاصر . والواقع ان هذا الانبعاث ليبدو امرا طبيعيا عندما نحلل ظروفه ومضامينه ، ولا غرو ما دامت هناك حقيقة تسلم بتوافق الفترات الثقافية الكبرى في تاريخ الشعوب ، مع فتراتها السياسية الكبيرة .

نشأت السينما الجزائرية في خضم حرب التحرير، وسخرتها الثورة لخدمتها كوسيلة اعلامية واداة تثقيف وتربية ، ولغة ضمير ثوري حي . ولقد برزت هذه السينما تحت ضغط الاحداث ، ومن اجل الكفاح ، فكان عليها استحداث كل وسائل النضال حتى ترتقي الى المستوى الذي يجعلها قادرة على خدمة الحقيقة التاريخية والاضطلاع بمهمة الدعاية لمقاومة الحرب النفسية الاستعمارية . وسيبقى هذا الطابع يطغى على السينما الجزائرية حتى بعد الاستقلال بل حتى يومنا هذا ، وان بدأت الثورة المسلحة لا تظهر في بعض الافلام الا كخلفية تاريخية لموضوع معين ، او في شكل نتائج فترة الاستعمار .

ويمكن ان نقسم تاريخ السينما الجزائرية الى ثلاث مراحل :

١ — السينما خلال الثورة :

لم تكن السينما الوطنية موجودة قبل ١٩٥٤ ، بسبب سياسة السلطات الاستعمارية التي كانت تخشى من تأثير الصورة والصوت على تأجيج مشاعر الوطنية الملتهبة للشعب الجزائري . فكانت الافلام التي تعرض في دور السينما ، تمجد الغرب ، عن طريق التشهير بالاخرين ، ورميهم بشتى التهم التي تفندها أبسط مراجع التاريخ . وبانطلاق ثورة الفاتح نوفمبر ، بدأ الاهتمام بالسينما كسلاح ايديولوجي يبرز لينتقل من حيز الفكر الى حيز الواقع في صور تجسده وتعبر عنه .

وهكذا انطلقت العدسة تلتقط صور الواقع الجديد ، لتعبر عنه من منظورها الخاص ، وبابتكار جزائرية . وقد استعملت الثورة المسلحة هذا السلاح الايديولوجي الخطير كوسيلة اعلام فعالة ، كعلم ورسالة وفن ، مهمتها رفع المستوى [...] للشعب. ومن هنا كانت هوية المخرجين والسين[...] ايام الثورة مجهولة . فالذي كان يهم الفنان [...] هو ان يقف شاهدا ، يرسم بعدسته ذاكرة شع[...] ويزيد في تدعيم تضامن هذا الشعب مع ال[...] على حفظ الحقيقة التاريخية ، كما تصور [...] الميدان ، ونقلها بامانة للاجيال القادمة كجزء [...] تاريخها وتراثها ، بل وذاتها .

وبفضل هؤلاء ، استطاعت الجزائر ان [...] « حرب التحرير » التسجيلي الذي يستعرض [...] مراحل كفاح الشعب الجزائري ضد الغزو الفرنـ[...] وتجدر هنا الاشارة الى ان قيادة الثورة كانت [...] بصفة قد تبدو سابقة لاوانها ، اهمية الا[...] التسجيلية في حفظ تاريخ الشعب من التلف والـ[...] والتشويه ، فامرت منذ عام ١٩٥٤ كل ولاية عسكرية بتسجيل ما امكن من وثائق مصورة عن الثورة [...]

وللاسف ضاع الكثير من هذا الكنز بسبب الحرب ولم يصلنا منه الا النزر القليل ، زادت عليه [...] بشراء الاشرطة المصورة حتى من فرنسا دون [...] تعلم هذه الاخيرة بحقيقة الشاري ، وجمعته [...] صناديق مغلقة وضعتها في احد مكاتبها ببلغراد في انتظار اعادتها الى الجزائر المستقلة . وقد [...] كمية هذه الاشرطة المسجلة ٢٠ الف متر ، و[...] انشأت الحكومة المؤقتة جهازا مركزيا ابتداء من [...] ١٩٥٨ بمهمة انتاج الافلام القصيرة ، وتنظ[...] الارشيفات المصورة .

ولم تكن للفنيين والمخرجين السينمائيين الخ[...] الفنية الكاملة ، فكثير من هؤلاء الشباب تكونوا [...] الميدان يلاحقون المعارك لتصويرها حتى ان [...] منهم استشهدوا ، وارسل البعض الاخر من [...] ممول نحو الفن السابع لقضاء فترات تدريبية [...] يوغوسلافيا ، والمانيا الديموقراطية . (مثلا [...] حامينا ، تكون في تشيكوسلوفاكيا) .

وهنا لا بد من فتح قوسين ، للتنويه بالمـ[...] اليوغسلافية التي ، بفضلها تمكنت الثورة من [...] مدرسة لالتقاط الصور بقرية غار الدماء ، [...] غار الدماء ، في الحدود التونسية الجزائرية ، و[...] هذه المدرسة التي ستكون ابتداء من ١٩٦٥ [...] مصلحة السينما التابعة للجيش الوطني [...] ، تخرج منها ٣٠ شابا .

وقد شهدت فترة حرب التحرير تصوير افلام [...] ، تعتبر اثارا حية لحقيقة عاشها جيش [...] التحرير ، واللاجئون الذين رابطوا داخل الاراضي [...] الغربية التونسية ، على طول الحدود التي تفصلهم [...] عن بلادهم . كانت هذه الافلام توزع على تلفزيونات [...] العالم الاشتراكي بوجه خاص ، واذكر هنا ان احد [...] الافلام القصيرة عرض في الشاشة الصغيرة الامريكية [...] عام ١٩٥٦ ، وكانت مناسبة اكتشف فيها الراي [...] العام الامريكي لاول مرة استعمال الجيش الفرنسي [...] النابالم في حربه الابادية ضد الشعب [...] الجزائري . على ان هذه الافلام كانت كلها من فئة [...] ١٦ مم ، ولم يشرع في استعمال فئة ٣٥ ملم الا في [...] عام ١٩٥٧ ، بفلم : « جزائرنا » للمخرجين « موني » [...] و« شندرلي » .

[...] على خط متواز ، كانت هناك سينما فرنسية ، [...] في مصلحتين :

١ — مصلحة ادارية : ومهمتها الرقابة او مراقبة [...] الذاكر ..

٢ — مصلحة فنية : وكان من اختصاصها ، الى [...] صالة العتاد ، توزيع الافلام بواسطة [...] العروض المتنقلة » ، وكانت لهذه المصلحة مكتبة [...] افلام دعائية انتجتها المصالح النفسية التابعة [...] للجيش الفرنسي، بهدف التاثير على معنويات الشعب، [...] الثورة عنه .

[...] كانت هناك مؤسسات سينمائية خاصة تتلقى [...] من الحكومة الفرنسية ، مقابل مدها [...] مثلية ، وكل ما هو مطلوب منها . وتمثلت [...] في وجود مختبر Studio Africa [...] فرنسا معها برحيلها من الجزائر ، كما [...] الى تلك البنية السينمائية من جذورها [...] الى فرنسا .

[...] القول ان الوضع السينمائي الجزائري [...] الاستقلال كان يتميز ، من الجانب الاستعماري، [...] :

— قلة وسائل الانتاج
— قلة الامكانيات المادية

ومن جانب الثورة ، كان يتميز بوجود نخبة من المخرجين (امثال حامينا وراشدي) تدربوا على السينما كفن وعلم ، وكانت لهؤلاء الشبان ، رغم عددهم القليل ، تجربة في الفن السابع سيوظفونها في خدمة الشعب بمجرد انتزاعه النصر .

٢ — السينما في عهد الاستقلال :

ثمة حقيقة يجب اقرارها احقاقا للحق ، وهي ان الجزائر كانت تفتقر يوم انتزعت استقلالها الى السينمائيين ، ممثلين ومخرجين ، والى التجهيزات المادية ، والمختبرات والاستديوهات ، بعد ان فككت فرنسا مختبر Studio Africa ونقلته الى تونس ، فكان لزاما اذن خلق كل شيء ، وبناء كل شيء من الاساس ..

كما كان لزاما قبل التفكير في الانتاج ، وضع قانون يحكم السينما ، مع اعادة النظر في الافلام المهياة للعرض ، والتي برمجها المستعمر دون ان يتمكن من عرضها . وبوجيز العبارة ، واجه المسؤولون السابقون مهمة اعادة تنظيم شبكة التوزيع مع احياء فكرة القوافل المتنقلة التي كانت تنقل العروض الى وسط الفلاحين بقصد توعيتهم ، وتجنيدهم للثورة .

أما من الناحية العقائدية ، فلم تكن رسالة الفلم موضع نقاش كبير ، اذ كان واضحا منذ الوهلة الاولى ان السينما ، التي نشأت وترعرعت في احضان الثورة ، لا يمكن ان تنسحب الى الصالونات، وغرف النوم ، وحانات الليل ، بل ان ثوريتها تحتم عليها مواصلة النضال اليومي في الشارع ، لتصوير الواقع ، ومحاولة نقده بهدف ايجاد العلاج الملائم لـه .

وكان تصور دور السينما في معركة البناء واضحا ايضا عند الفنيين والسياسيين ، فالفلم يجب ان يكون عامل تثقيف ، وحامل فكر سياسي ، ووسيلة دائمة للاحتكاك بالجماهير ، لشرح اهداف الثورة لهذه الجماهير .

وتكتسب السينما في الجزائر اهمية خاصة لانها تنمو وسط شعب ، ثلاثة ارباعه من الاميين ، لا يعرفون القراءة ولا الكتابة . وبديهي ان الوسائل السمعية البصرية تعد في هذه الحالة الطريقة الوحيدة لمكافحة الامية حتى تتوفر شروط ترويج الثقافة . والسينما من هذا المنظور ، سوف تستجيب لحاجة دفينة في صدر الشعب ، وهي ارواء ظمأه الثقافي ، وحمله على تحسس مشاكل المرحلة الجديدة حتى يساهم في حلها . وفي نفس الوقت ، كان لزاما انتاج افلام فنية تعبر عن خاصيتنا الثقافية ، تجمع بين الالتزام السياسي والجمال الفني ، وباختصار لقد مهدت الجزائر السينما خلال الثورة المسلحة كسلاح لا يقل اهمية عن البندقية ، ومهمتها غداة الاستقلال كفن يجب ان يساعد على تعميق الوعي الجماهيري ، وتقل الشخصية الجزائرية في قالبها العربي الاسلامي ، وهذا لا يعني ان السينما ستكف عن الاضطلاع بدورها التقليدي الاخر ، اي توفير الراحة الذهنية والمتعة الفنية للمتفرج ، انما حتى الفلم المسلي ، يجب ان يحمل شيئا للمتفرج يساعده على تهذيب ذوقه واكتشاف حسه الفني ، سيما وان الجمهور الجزائري ، لاسباب يعرفها الجميع ، كان اكثر اقبالا على الافلام الغربية المليئة بالحركة من نوع الوسترن .

وعلى العموم مرت السينما الجزائرية قبل ان تصل الى ما هي عليه اليوم بثلاث مراحل رئيسية :

البقية في العدد القادم